مجتمع النبيﷺ في الجاهلية

عبد الخالق الصائغ

تمهيد

لكي يتسنى لنا الوقوف على عظمة نبيّناﷺ يلزم أن نحيط بالظروف التي عمل فيها على نشر دعوة الحق، فنطّلع على الأحوال الاجتماعية والدينيّة التي كانت سائدة في ذلك المحيط ـ العبادات والعادات ـ والتي استطاع هذا النبي العظيم أن يغيّرها ويغيّر أهلها..

هنا وباختصار، حاولت أن أكتب عن ذلك المجتمع بما يسمح به المقام، كي يصير بإمكاننا تصوّر مدى الجهد الكبير الذي بذله صلى الله عليه وآله في سبيل التغيير، ليس تغيير ذلك المجتمع فحسب، بل تغيير مسار الإنسانيّة ككل، وذلك حين أخرج الناس من الظلمات إلى النور، فانتشرت دعوته في أصقاع الأرض، فحيثما تذهب في قارات العالم الخمس تجد أمامك أثر هذا العمل ملموساً من خلال: لا إله إلا الله محمد رسول الله..فانظر إلى عظمة هذا الإنسان الاستثنائي من خلال معرفة بيئة عمله.

كان المجتمع الجاهلي الذي ولد فيه النبيﷺ مجتمعاً بسيطاً لا يعرف تعقيدات الحضارة، يعيش أعرافاً وتقاليد متوارثة، توارثها الأبناء عن آبائهم ولم يناقشوا

فيها، فكانت هذه التبعيّة من غير تدبّر، وقد عبّر القرآن الكريم عن حالهم هذه في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[1]، وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا...﴾[2]، وفي سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[3]. فكانوا يرتعون في جاهليتهم الجهلاء، لا يصغون لكلمة الخلاص التي جاءهم بها سيّد الخلقﷺ: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

وفي هذا المجتمع الحنيفي المنشأ في عقائده، حصلت تغيّرات عديدة في مسائل العبادة والعقائد، نتجت عن تباعد الزمن عن الحنيفية، وقد جرّ هذا التباعد بالتالي إلى ظهور عبادة الأصنام التي كانت السبب في إطلاق لفظ الجاهلية عليه كما سيأتي لاحقاً، وكان سبب العبادة لها التقليد على الأكثر، حتى عندما تكلّموا عن نشوء هذه العبادة في مجتمع مكة على يد عمرو بن لحي الخزاعي قالوا: إنه جاء بها من نواحي الأردن، وسيأتي الكلام فيه تحت عنوان مستقل، وقيل عن عمرو هذا إن العرب حين غلبت خزاعة على البيت ونفت عنه جرهم جعلت منه ربّاً، لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة[4].

والنتيجة أن القوم وجدوا آباءهم على هذا الأمر فتبعوهم بلا تدبّر، وكانت تظهر نتائج التدبر في بعض الأحيان عند التأمّل في حال هذا المعبود، وقصّة صنم عمرو بن الجموح التي رواها ابن هشام تدلّك على حالهم في ذلك وإليك القصة:

---

(١) المائدة: ١٠٤.

(٢) الأعراف: ٢٨.

(٣) لقمان: ٢١.

(٤) معجم البلدان، الحموي ٥: ٤.

قال ابن هشام في سيرته: كان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلهاً تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس منكساً على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه! فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك؛ فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس، ثم عدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به.. فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه وكلّمه من أسلم من قومه فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه[1].

إن هذه القصّة تغنيك عن غيرها بعد أن تجعلك تسخر من عقول تلك الأقوام فيما ذهبت إليه في عبادتها لتلك الجمادات..

هل كان في الجاهلية شيء من خير؟

قبل الخوض في وصف أهل الجاهلية، قد يكون من الملائم التعرّض لهذا العنوان، وهو الحديث عن فضائل كان يتحلّى بها أهل هذا المجتمع على ما فيه من

(١) سيرة ابن هشام: ٣٢٢.

عظائم الآثام، التي تودي بمقترفها في أسفل درك الجحيم، وعلى رأس تلك الآثام الشرك الذي ليس بعده ذنب، لذا وُصف في محكم الكتاب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، ولكن وبالرغم مما كان فيه القوم، فقد كان البعض منهم يتحلّى بأصناف من الفضائل والصفات الحميدة، كالكرم والشجاعة والنخوة وحفظ العهود وغيرها من جميل الصفات؛ ولا يغيب عنا حديث النبيﷺ المشهور: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» الذي رواه غير واحد[2]، والذي يدلّك على وجود شيء منها بين الناس، وجاء ليكمل ما بين أيديهم من مكارم الأخلاق. وأيضاً تجدر الإشارة هنا إلى حديث الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام الذي رواه الحر العاملي في الوسائل، والذي ذكر فيه شيئاً من حال العرب في عباداتهم وقربهم من الحنيفية، واستدل على ذلك بشواهد عديدة منها أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة، والاغتسال من خالص شرائع الحنيفية، وكانوا يختتنون وهو من سنن الأنبياء، وإنّ أول من فعل ذلك إبراهيم الخليل؛ وكانوا يغسلون موتاهم ويوارونهم في القبور ويلحدونهم؛ وحرّمت العرب نكاح المحارم النسبية؛ وكانوا يعظّمون بيت الله الحرام ويحجون إليه ويقولون: بيت ربّنا...[3].

وقد ورد في كتب التواريخ أنّ بعضاً من جميل صنعهم أقرّوه على شكل عهود ومواثيق كحلف الفضول الذي «تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكّة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تردّ عليه مظلمته»[4]. ثم تجدّد هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان، قال ابن الأثير في الكامل: ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنّه، وكانوا بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن

(١) لقمان: ١٣.

(٢) كما في كنز العمال، المتقي الهندي ٣: ١٦، ح ٥٢١٧؛ والسنن الكبرى للبيهقي ١٠: ١٩٢؛ وغيرها.

(٣) راجع نص الحديث في وسائل الشيعة (آل البيت) ٢: ١٧٧؛ لأن ما نقلناه هنا كان مضمون الحديث.

(٤) سيرة ابن هشام: ١١١.

عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة... وشهده رسول الله ﷺ فقال حين أرسله الله تعالى: لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحبّ أن لي به حمر النعيم [النعم] ولو دعيت به في الإسلام لأجبت[1].

وروي في سيرة ابن هشام ما يشير الى هذا الحضور[2]. وقد ظل هذا الحلف سارياً حتى في الإسلام على ما ورد في بعض الكتب.

روى ابن الأثير في الكامل أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال كان بينهما، والوليد يومئذ أمير على المدينة لعمّه معاوية، فتحامل الوليد لسلطانه فقال له الحسين: أقسم بالله لتنصفني أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ثم لأدعون بحلف الفضول؛ فقال عبد الله بن الزبير وكان حاضراً: وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبته حتى ينصف من حقه أو نموت؛ وبلغ المسور بن مخرمة الزهري فقال مثل ذلك؛ وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك؛ فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضي[3].

وروي أيضاً أن الإمام الحسين عليه السلام دعى بهذا الحلف عند تشييع أخيه الحسن المجتبى عليه السلام وخروج بني أميّة وأحلافهم مع مروان، لمنعه من دفن أخيه بجوار جدّه المصطفى ﷺ، قال ابن عساكر في ترجمة الحسن عليه السلام في تاريخ دمشق: «فصاح حسين بحلف الفضول، فاجتمعت بنو هاشم وتيم وزهرة وأسد وبنو جعونة بن شعوب من بني ليث قد تلبّسوا السلاح...»[4].

وكان مما عندهم من جميل الصفات: الجوار وحسن الجوار، فإذا ما أجار شخص شخصاً، فإنّ المجير في هذه الحالة قد يكون مستعداً للتضحية بنفسه وأهله

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢: ٤١.
(٢) سيرة ابن هشام: ١١٢.
(٣) الكامل في التاريخ ٢: ٤١ ـ ٤٢.
(٤) ابن عساكر، ترجمة الحسن عليه السلام في تاريخ دمشق: ٢٢٢.

في سبيله، وتحكي كتب السير كيف أن النبيﷺ دخل مكة بعد رجوعه من الطائف بجوار المطعم بن عدي، وكان ذلك بعد أن فقد رسول اللهﷺ حاميه وكافله، عمه أبو طالب سلام الله عليه الذي ما إن انتقل ابن أخيه إلى كنفه حتى فضّله على بنيه في الرعاية، وكان يحرص عليه حرصاً منقطع النظير؛ ويلمس المتتبع للتاريخ ذلك بسهولة، خاصة بعد البعثة وحين صرّحﷺ أنه مبعوث من الله، وكان في ذلك يتحدّى كلّ قريش في دفاعه عن النبيﷺ، فلم يكن يدعهم ليصلوا إليه بسوء، وقد صرّح بذلك حين قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسّد في التراب دفيناً

وبلغ الأمر أنه آثر أن يكون محاصراً مع النبيﷺ الذي آمن به على أن يسلمه للقوم، حتى مات سلام الله عليه في السنة العاشرة للبعثة[1]، وذلك بعد مواقف عظيمة تنم عن سموّ إيمان؛ ولشدة تأثر النبيﷺ بفقده سمّى ذلك العام عام الحزن حيث فقد فيه أيضاً ـ إلى جانب العم العظيم ـ زوجته الوفيّة أم المؤمنين السيدة خديجة سلام الله عليها. ولم يكن له بُد من الخروج من مكة بعد هذه الحادثة، فقد جاءه الوحي من ربه، فقال له جبرئيل عليه السلام: إن الله عزوجل يقرؤك السلام، ويقول لك: اخرج عن مكة فقد مات ناصرك[2]، ما كان له أن يعود ما لم يكن له من يحميه، فاختارﷺ المطعم.

وقد ورد في كتب التواريخ والسير أن المطعم لبس سلاحه ومعه بنوه وبنو أخيه ودخلوا المسجد فاستقبلهم أبو جهل، وقال للمطعم: أمجير أم تابع؟ فقال: بل مجير، فقال أبو جهل: قد أجرنا من أجرت[3]. ومضىﷺ يتابع دعوته في جوار المطعم

(١) السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة المصطفى ٣: ٢٢١.

(٢) الشيخ المفيد، إيمان أبي طالب: ٢٤.

(٣) كما في كتب السير: راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني: ٢٢٤.. وقد حفظ النبيﷺ ذلك للمطعم ونوّه به يوم بدر..

ويعرض نفسه على القبائل أيام الموسم ويسألهم النصرة. وقد حفظ النبيﷺ للمطعم ما كان منه، وقال في أسرى بدر من المشركين كما روي عنهﷺ: لو كان المطعم حياً وكلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له[1].

وكان بوسع الرجل أن يردّ جوار من أجاره، ولكن المجير كان يفضّل أن يفعل ذلك المستجير علانية كما في قصّة رد عثمان بن مظعون لجوار الوليد[2].

وكانت النخوة والنجدة متأصّلة فيهم لاسيّما ضمن أفراد القبيلة الواحدة والتي يمكن أن يعبّر عنها بالعصبيّة القبليّة[3]؛ لذلك كانت هذه موضع تفاخر في شعر تلك الفترة حتى قال شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهان[4]

وقول الآخر:

إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهم إلى أيّ حيٍّ أم بأيّ مكانِ[5]

أما الكرم، فكان من دواعي الفخر عندهم، وقد بلغ فيه البعض أسمى المنازل، ويكفي ذكر حاتم الطائي وكرمه الذي ذاع في الأقطار.. حتى أن النبيﷺ مدح هذه الخصلة فيه عندما حدّثته سفانة ابنة حاتم عن أبيها، وما كان فيه من الصفات، فقال لها رسول اللهﷺ: يا جارية! هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها! فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب

(١) ابن حجر، فتح الباري ٦: ١٧٣؛ و ذكره في سبل السلام ٤: ٥٦؛ و مسند أبي يعلى ١٣: ٤١٢، وتجدر الإشارة هنا أن المطعم كان من المشاركين في نقض الصحيفة وفك الحصار عن المسلمين في الشعب.

(٢) للمزيد راجع ابن هشام: ٢٦٩.

(٣) الدكتور علي الوردي، دراسات في طبيعة المجتمع العراقي: ٥٧.

(٤) والقول لقريط بن أنيف العنبري.

(٥) هذا البيت لودّاك بن ثُميل المازنيّ.

مكارم الأخلاق[1].

أما الوفاء فيكفي فيه حاجب بن زرارة وقوسه الذي رهنه عند كسرى[2]، وكذا السموأل الذي ضحّى بولده كي يفي لامرئ القيس فيما أودع عنده[3].

وأختم الكلام هنا بحديث رسول اللهﷺ الذي تكلم فيه عن نفسه، وأنّه صفوة الخلق عندما قال: «.. ثم خلق (الله) الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من خيار إلى خيار...» فهذا الحديث يدل أن هؤلاء القوم كانوا من ذوي المكانة العالية بين من عاصرهم من شعوب الأرض، ولكن الكلام يقع في أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها مخلوق وهي الشرك بالله العظيم، حيث هو الفيصل في التقييم، والذي أدى بدوره إلى الابتعاد عن الله تعالى حيث تراكمت المعاصي، فأدت إلى حجب ما يمكن أن يتسلل من نور

---

(١) ذكره صاحب التذكرة الحمدونية وصاحب الأغاني، كما ذكره الأبشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٢٩٢.

(٢) عن العقد الفريد لابن عبد ربه قال: إن حاجب بن زرارة وفد على كسرى لما منع تميماً من ريف العراق، فاستأذن عليه، فأوصل إليه: أسيد العرب أنت؟ قال: لا؛ قال: فسيد مضر؛ قال: لا؛ قال: فسيد بني أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له، فلما دخل عليه، قال له: من أنت؟ قال: سيد العرب؛ قال: أليس قد أوصلت إليك، أسيد العرب؟ فقلت: لا، حتى اقتصرت بك على بني أبيك فقلت: لا؟ قال له: أيها الملك، لم أكن كذلك حتى دخلت عليك، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب؛ قال كسرى: آه، املؤا فاه دراً. ثم قال: إنكم معشر العرب غدر، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وآذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك أن لا يفعلوا؛ قال: فمن لي بأن تفي أنت؟ قال: أرهنك قوسي. فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا: لهذه العصا يفي! قال كسرى: ما كان ليسلمها لي لشيء أبداً فقبضها منه، وأذن لهم أن يدخلوا الريف. ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه؛ فقال له: وقد وفى له قومه ووفى هو للملك. فردها عليه وكساه حلّة.

فلما وفد إلى النبيﷺ عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم، وأسلم على يديه، أهداها للنبيﷺ، فلم يقبلها...

(٣) عن التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٣: ١٢: والعرب تضرب المثل في الوفاء بالسموأل، وهو ابن عريض بن عادياء الأزدي... وكان من خبره أن امرأ القيس بن حجر أودعه أدراعاً مائة، فأتاه الحارث بن ظالم ويقال: الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذها منه، فتحصّن منه السموأل، فأخذ ابناً له غلاماً وناداه: إما إن أسلمت إلي الأدراع وإما إن قتلت ابنك، فأبى السموأل أن يسلم الأدراع إليه، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه...

إلى تلك القلوب.. ثم إن إلقاء نظرة إلى المجتمعات المحيطة بالعرب تجعل الناظر يشعر بالفرق بين مجتمع العرب وغيرهم، وعلى الظاهر أن العرب على ما كانوا فيه، فقد كانوا خيراً من غيرهم.

المراد بالجاهلية

نعود إلى الجاهلية وما يراد بها، فقد قيل: إن المراد بها الجهل التوحيدي الديني لا الجهل بعلم من العلوم.. فقد أفادت صلات العرب الحضارية مع العالم، وظاهرة بناء أقدم سد ركامي (مأرب)، الدخول في صفقات منتظمة وأحلاف وعقود بأنهم كانوا على دراية بقضايا عصرهم، فالجاهلية ليست سوى الجهل بتوحيد الله تعالى، وذكرت دوائر المعارف والكتب بأن اليهودية أطلقت كلمة الجاهليين على الأقوام الذين سبقوا ظهورها.. وأما تحديد فترة الجاهلية، فهي في نظر المفسّرين تمتد من الجاهلية الجهلاء أو الجاهلية الأولى التي كافحها النبي إبراهيم عليه السلام إلى الجاهلية الثانية التي ناضلها النبي محمد صلى الله عليه وآله..[1].

على أنّ بعض المؤلفين قال: إن لفظ الجاهليّة شاع بعد الهجرة إلى المدينة، كما

(١) الأدب الجاهلي للسيد جعفر الحسيني: ١٦ـ١٥، مع بعض التصرف.

أنّ آخر قال: وكانت قريش تسمى في الجاهلية العالمية لفضلهم وعلمهم. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

ألسنا أهل مكة عالمياً وأدركنا السلام بها رطابا[1]

أول عبادة الأصنام

وإذا ما قلنا بأن الجاهلية تعني الجهل بتوحيد الله تعالى، لزم أن نلمح إلى ما روي عن أوّل عبادة الأصنام ونشأتها؛ فقد روى ابن هشام في سيرته أنّ عمرو بن لحي الخزاعي هو أوّل من سنّ هذه العبادة؛ حيث جاء بصنم من أرض البلقاء يدعى هبل[2]؛ وفي هذا دلالة واضحة على أن هذا الأمر الخطير ـ الشرك ـ لم يكن معروفاً في مكة قبل أن يأتي به عمرو بن لحي هذا، فقد جاء به من الأطراف البعيدة في شمال جزيرة العرب، وكانت تلك المنطقة أقرب إلى نفوذ الروم.

هذا، وقد ورد في كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري أن أول من غيّر الحنيفية وبحر البحيرة وسيّب السائبة وجعل الوصيلة والحام عمرو بن لحي، وهو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولي البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام، ورأى الأصنام تُعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية..[3]

وكما ورد في كتاب الحور العين: وأول من دعا العرب إلى عبادة الأوثان، وغيّر دين إسماعيل: خزاعة واسمه عمرو بن لحي، واسم لحي ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي..[4].

ولعظيم ما اقترف عمرو بن لحي، فقد ذكره النبيﷺ في أهل النار في مواطن

(١) أبو هلال العسكري، الأوائل ١: ٧٣؛ والسلام الحجارة، والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة.

(٢) سيرة ابن هشام: ٧٣.

(٣) الأوائل لأبي هلال العسكري ١: ٦٦.

(٤) الحور العين لنشوان الحميري: ٢٢٠.

عديدة، ولا يذهب عنّا حديث النبيﷺ: «من سنّ سنّة سيئة» ففي وصية النبي لابن مسعود كما في مكارم الأخلاق[1]: يا ابن مسعود: إياك أن تسنّ سنّة بدعة، فإن العبد إذا سنّ سنّة سيئة لحقه وزرها ووزر من عمل بها، قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَآثٰارَهُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنْسٰانُ يَوْمَئِذٍ بِمٰا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

وفي جامع البيان عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أن أبا صالح السمان، حدّثه أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول اللهﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: يا أكثم! رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصْبَه في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك فقال أكثم: أيضرّني شبهه يا نبي الله؟ قال: لا، لأنك مؤمن وهو كافر، وإنه كان أول من غيّر دين إسماعيل ونصب الأوثان، وسيّب السوائب فيهم[2].

وفي كنز العمال عن زيد بن أسلم، قال: قال النبيﷺ: «.. ولقد عرفت أول الناس سيّب السوائب، ونصب النصب، وغيّر عهد إبراهيم، عمرو بن لحي، ولقد رأيته يجرّ قُصْبَه في النار، ويؤذي أهل النار جرّ قصبه»[3].

عبادة و معتقدات وعادات الجاهلية

وإذا كان الكلام كذلك، فلنلقِ نظرة على بعض المعتقدات والعادات التي

---

(١) الطبرسي، مكارم الأخلاق: ٤٥٤.

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري ٧: ١٢٠، وفيه قال: وذلك أن الناقة إذا تابعت ثنتي عشرة إناثاً ليس فيها ذكر سيّبت، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف. فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقّ أذنها ثم خلي سبيلها مع أمها في الإبل، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها فهي البحيرة ابنة السائبة. والوصيلة: أن الشاة إذا نتجت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس فيهنّ ذكر جعلت وصيلة، قالوا: وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك لذكورهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شئ فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامي: أن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهنّ ذكر حمي ظهره، ولم يركب، ولم يجز وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك. يقول الله تعالى ذكره: ﴿مٰا جَعَلَ اللّٰهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاٰ سٰائِبَةٍ وَلاٰ وَصِيلَةٍ وَلاٰ حٰامٍ... ـ إلى قوله ـ وَلاٰ يَهْتَدُونَ﴾.

(٣) الهندي، كنز العمال ٢: ٤٠٣ الحديث ٤٣٦١؛ قُصْبه: بضم القاف وسكون الصاد أي أمعاءه.

كانت سائدة في تلك الفترة:

العبادة

كان أكثر العرب من المشركين، فكان لكل قبيلة صنم، لا بل كان هناك أصناماً خاصة ببعض الأشخاص، منها صنم عمرو بن الجموح الآنف الذكر؛ قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسّح به حين يركب، وإذا قدم من سفره تمسّح به[1]، وقريب منه ما ورد في كتاب الأصنام للكلبي[2]، أما أشهر الآلهة التي عبدوها فهي كما جاء في بعض الكتب:

١ـ هبل: الذي جاء به عمرو بن لحي على ما رواه ابن هشام[3]، وكان على بئر في جوف الكعبة[4]، ولكن الذي نصبه غير عمرو بن لحي، بحسب ما أورده الكلبي في كتابه الأصنام حيث قال: وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهبٍ. وكان أوّل من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر. وكان يقال له: هبل خزيمة، وكان في جوف الكعبة..[5] وعليه فهو معارض لما في السيرة النبوية لابن هشام.

ثم إن هناك أصناماً ذكرت أسماؤها في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ وأيضاً: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾، أما هذه الأصنام المذكورة فهي:

---

(١) ابن هشام: ٧٧.

(٢) الكلبي، الأصنام: ٣٤.

(٣) ابن هشام: ٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ٧٦.

(٥) الأصنام: ٢٨.

٢ـ مناة: وقد كانت العرب تسمّي عبد مناة وزيد مناة. وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله. وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له... ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج[١].

٣ـ اللات: كان في الطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكان يهودي يلت عندها السويق. وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك، وكانوا قد بنوا عليها بناءاً، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمي زيد اللات وتيم اللات[٢]. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى[٣].

٤ـ العزى: وهي أحدث من اللات و مناة كما عن ابن الكلبي في كتاب الأصنام، حيث قال: وذلك أني سمعت العرب سمت بها قبل العزى.. كانت بوادٍ من نخلة الآشمية، يقال له: حراض، بإزاء الغمير، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة. وذلك فوق ذات عرقٍ إلى البستان بتسعة أميال. فبنى عليها بساً، يريد بيتاً. وكانوا يسمعون فيه الصوت. وكانت العرب وقريش تسمي بها عبد العزى. وكانت أعظم الأصنام عند قريش. وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح... وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فإنهن الغرانيق العلى[٤].

٥ـ يغوث: اتّخذته مذحج وأهل جرش[٥].

---

(١) النجم: ١٩ ـ ٢٠، ونوح: ٢٣.

(٢) الأصنام: ١١، ١٥.

(٣) كتاب الأصنام: ٢٧، وأيضا عن اللات راجع ابن هشام: ٧٣ الهامش.

(٤) كتاب الأصنام: ١٧ ـ ١٨.

(٥) المصدر نفسه: ٨.

٦ـ **سواع**: اتخذته هذيل، فكان برهاط من أرض ينبع، وكانت سدنته بنو لحيان[١].

٧ـ **ود**: اتخذته كلب بدومة الجندل[٢].

٨ـ **يعوق**: اتخذته خيوان، فكان بقريةٍ لهم يقال لها: خيوان من صنعاء، على ليلتين مما يلي مكة[٣].

٩ـ **نسر**: اتخذته حمير، فعبدوه بأرض يقال لها: بلخع[٤]..

وكان لهم أساف ونائلة قيل: إنهما كانا مسخين[٥]. وكان لهم غيرها، ولكن اقتصرنا على أشهرها حتى لا نطيل..

ومن شدّة تعلّق أهل الجاهليّة بأصنامهم، فقد كانوا يستمهلون النبيﷺ بعض الوقت «لتوديعها» حين كان يرسل من يحطمها؛ فيأبى عليهم ذلك.

ومن جميل ما يروى في الباب قولهم: إن أبا أحيحة، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرض مرضه الذي مات فيه. فدخل عليه أبو لهبٍ يعوده، فوجده يبكي. فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه؟ قال: لا. ولكني أخاف أن لا تُعبد العزى بعدي. قال أبو لهب: والله ما عبدت حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك! فقال أبو أحيحة: الآن علمت أن لي خليفة! وأعجبه شدّة نصبه في عبادتها[٦].

وحكي أيضاً من لطائف المقام أنّه كان لمالكٍ وملكان ابني كنانة، بساحل جدة وتلك الناحية صنم يقال له: سعد، وكان صخرةً طويلة. فأقبل رجل منهم بإبلٍ له

---

(١) المصدر نفسه: ٧.

(٢) الأصنام: ٧.

(٣) المصدر نفسه: ٨.

(٤) المصدر نفسه: ٩.

(٥) المصدر نفسه: ٦؛ ابن هشام ٧٦، وللمزيد عن أصنام العرب راجع كتاب الأصنام للكلبي وكتاب السيرة: ٧٢ـ٨١.

(٦) الأصنام: ٢٣.

ليقفها عليه، يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه، نفرت منه وكان يهراق عليه الدماء. فذهبت في كل وجهٍ وتفرقت عليه. وأسف فتناول حجراً فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلهاً! أنفرت علي إبلي!. ثم خرج في طلبها حتى جمعها و انصرف عنه، وهو يقول:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد!
وهل سعد إلا صخرة بنوفة من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد[1]

وعن البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي: كانت بنو حنيفة اتخذوا إلهاً من حيس، فعبدوه دهراً، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بني تميم:

أكلت حنيفة ربّها من جو ع قديم بها ومن إعواز

بعض معتقدات الجاهليّة

بعد أن تكلمنا في العبادة نذكر بعض ما كان يعتقده بعضهم في أمور منها:

المعاد: فقد كانوا يعتقدون أن الإنسان إذا مات فنى، وليس هناك بعث، تدل عليه آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ**﴾[2].

الروح: في مروج الذهب للمسعودي: من العرب من يزعم أنّ النّفس طائر ينبسط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره، ويزعمون أنّ هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتّى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش ويوجد في الديار المعطّلة، ومصارع القتلى والقبور، وأنّها لم تزل عند ولد الميت ومخلّفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره[3].

---

(١) الأصنام: ٤١ـ٤٠.

(٢) سبأ: ٧ـ٨.

(٣) عن الشعائر من الجاهلية إلى الإسلام للشيخ محمد فاضل المسعودي: ١٢٢.

الملائكة: قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[1]، قال العلامة الطباطبائي في الميزان: وقد قيل: إن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله[2].

الجن: اعتقدوا أنها كانت تخالطهم في كل مكان، لذا كانوا يستعيذون بها، حتى حكي أن رجلاً حل وادياً، وكان معه ولد له، فاستعاذ بعظيم الوادي ـ كما جرت العادة ـ فعدا السبع على ولده فقال:

قد استعذنا بعظيم الوادي من شر مافيه من الأعادي
فلم يجرنا من هزبر عاد

وكان إذا مرض أحدهم وطالت علّته حسبوا أنّ الجِنّة مسّته عقوبةً له على قتله حيّة أو يربوعاً أو قنفذاً أو غزالاً أو أرنباً، وهي من مراكب الجن وأحبابها فقدّموا الدية للجن.. على جمال من طين.. وقت الغروب، فاذا أصبحوا ووجدوا الجمال على حالها قالوا: إنّ الدية لم تقبل، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقط وتبدد ما عليها من حب قالوا قبلت، واستبشروا بشفاء المريض[3].

---

(١) النحل: ٥٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٢٧٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٢٧٤.

وانظر: الشعائر من الجاهلية إلى الإسلام: ١١٠ـ١٠٨؛

وابن طباطبا العلوي، عيار الشعر: ٦١، ٦٤؛

وكذا كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري: ٢٧؛

الحيوان للجاحظ: ٣: ١٣٥؛

والتذكرة الحمدونية ٧: ٢٠٥، ٣٣٤؛

وسيرة ابن هشام، وقريب منه ما ورد في كتاب الأوائل؛

والبيان والتبيين للجاحظ: ٥٨٩ـ٥٨٨؛

والوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي ٢٤: ٢١٥؛

وابن الكلبي، الأصنام: ٤ـ١، ١٠٢ـ١٠٣؛

وكانوا يزعمون أنّ من علّق على نفسه كعب أرنب لن تقربه أو تمسّه الجن بأذى[1].

شعائرهم وعاداتهم

لا بأس بالكلام عن بعض الشعائر والعادات التي كانت موجودة في الجاهلية وهي مدرجة تحت عناوين مختارة منها:

الاستسقاء: كان لهم شعائر خاصة فيه، فكما عن كتاب الحيوان للجاحظ فقد كانوا إذا تتابعت عليهم الأزَمَات ورَكَدَ عليهم البلاءُ، واشتدّ الجَدْب، واحتاجوا إلى الاستِمْطار، استجمعوا وَجَمَعُوا ما قَدَرُوا عليه من البَقَر، ثم عقَدُوا في أذنَابها وبينَ عَراقِيبها، السَّلَعَ والعُشَر، ثمَّ صعدوا بها في جبلٍ وعْرٍ، وأشعَلُوا فيها النِّيرانَ، وضجُّوا بالدُّعاء والتضرُّع، فكانوا يَرَوْن أنّ ذلك من أسبابِ السُّقيا..[2]

التطيّر: وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش للتفاؤل بها، قال الجاحظ في كتاب الحيوان: وأصل التطيُّر إنما كان من الطّير ومن جهة الطير، إذا مرَّ بارحاً أوْ سانحاً، أو رآه يتفلى وينتَتِف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعورَ من النّاس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيَّروا عندها، كما تطيَّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فكان زجر الطّير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطيّر، ثمَّ استعملوا ذلك في كلِّ شيء[3].

ومن عاداتهم التي ذكرها ابن طباطبا العلوي في كتابه عيار الشعر[4]:

علاج الملدوغ: فقد كانوا يعلقون الحلي والجلاجل على السليم (وهو الذي لدغ من أفعى أو غيرها) ليفيق.

---

(١) ابن طباطبا العلوي، معيار الشعر: ٦٤.

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ، وكذا كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري: ٢٧؛ وابن طبا طبا العلوي، عيار الشعر: ٦١.

(٣) الحيوان: ٣: ١٣٥.

(٤) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر باب سنن العرب وتقاليدها: ٥٣ ـ ٦٥.

دفع العين: وكانوا لدفعها يفقؤون عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً، فإن زادت عن الألف فقؤوا العين الأخرى، يقولون: إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين. وفي ذلك يقول قائلهم يشكر ربه على ما وهب له:

وهـــبتها وأنت ذو امــتنان يــفقأ فــيها أعــين البــعران

فعلهم خلف من لا يحبون عوده إليهم: وكانوا يوقدون خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه ناراً، ويقولون: أبعده الله وأسحقه. وأوقـد نـاراً إثـره. وفي ذلك يقول شاعرهم:

وذمــة أقــوام حـملت ولم نكـن لنـــوقد نـــاراً إثــرهم للــتندّم

ضرب الثور لتشرب البـقر: وكانوا يضربون الثور إذا امتنعت البقر من الماء، ويقولون: إن الجن تركب الثيران فتصدّ البقر عن الشراب. قال الأعشى:

فــإني ومــا كــلفتموني وربكــم ليــعلم مـن أمسـى أحـق وأحـوبا
لكــالثور والجــني يـركب ظـهره وما ذنـبه أن عـافت المـاء مشـربا
ومــا ذنـبه أن عـافت المـاء بـاقر ومــا إن تـعاف المـاء إلا ليـضربا

رمي السنّ للشمس: وكان من عاداتهم أن الصبي منهم يحذف سنه إذا سقطت في عين الشمس، ويقول: أبدليني بها أحسن منها، وليجر في ظلمها إياتك... قال أبو دؤاد: ألقى عليه إياه الشمس أدرانا[1].

الرتـم: وكعقدهم خيطاً يسمونه الرتم في غصن شجرة أو سـاقها، إذا سـافر أحدهم وتفقد ذلك الخيط عند رجوع المسافر منهم فإن وجده على حاله قضى بأن أهله لم تخنه، وإن رآه قد حلّ حكم بأنها قد خانته. قال ابـن حمـدون في التـذكرة الحمدونية: الرتم شجرٌ معروفٌ. كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفرٍ عـمد إلى

(١) والغريب أن هذه العادة ما زالت سائدة في بعض المجتمعات للآن حيث رأيت بعض الأطفال يفعلون ذلك..

هذا الشجر فعقد غصناً منه بغصنٍ، فإذا عاد من سفره إن وجده قد انحل قال: قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حاله قال: لم تخني[1].

لدفع الوباء: وزعموا أن الرجل إذا أراد قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخل فعشر كما ينهق الحمار، ثم دخلها لم يصبه وباؤها. وقال عروة بن الورد في ذلك، وكان خرج مع أصحاب له إلى خيبر يمتارون فخافوا وباءها، فعشروا وأبى عروة أن يفعل، فلما دخلوها وامتاروا وانصرفوا نحو بلادهم لم يبلغوا مكانهم إلا وعامتهم ميت أو مريض إلا عروة، فقال:

لعمري لئن عشرت من خشية الردى نهاق حمير إنني لجزوع

انتهى ما نقلناه عن عيار الشعر، وقد ذكر غيرها من عادات فلتراجع في محلها[2]..

النسيء: قال في التذكرة الحمدونية بعد ذكر قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ**

(١) التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٧: ٣٣٤.

(٢) ككتاب الشعائر بين الجاهلية والإسلام، وكتاب عيار الشعر، باب سنن العرب وتقاليدها، والتذكرة الحمدونية: ٧.

فِي الْكُفْرِ..﴾[1] النسيء تأخير الشيء، وكانوا يحرّمون القتال في المحرم، ثم إذا عزموا أن يقاتلوا فيه جعلوا صفراً كالمحرم وقاتلوا في المحرم وأبدلوا صفراً منه. فأعلم الله عز وجل أن ذلك زيادةٌ في كفرهم ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيجعلون صفراً كالمحرم في العدد، ويقولون: إن هذه أربعة أشهر بمنزلة أربعة، والمواطأة: المماثلة والموافقة. والأشهر الحرم: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة[2].

وفي سيرة ابن هشام قال: قال ابن إسحاق: وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلّت منها ما أحلّ وحرمت منها ما حرم القلمس؛ وهو حذيفة بن عبد بن فقيم... بن كنانة بن خزيمة ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد... ثم قام... أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فحرّم الأشهر الحرم الأربعة رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم، فإذا أراد أن يحل شيئاً أحل المحرم فأحلوه، وحرم مكانه صفر فحرموه، ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم، فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال: اللهم إني قد أحللت لك أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل[3]...

وقد ورد في خطبة النبيﷺ في حجّة الوداع إشارة إلى ما كان من أمرهم في النسيء فقالﷺ: «أيُّها الناس! إنّ النّسيء زيادةٌ في الكُفْر يُضَلُّ به الذّينَ كَفَرُوا يُحِلّونه عاماً ويُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطُئوا عِدَّةَ مَا حَرّمَ الله فَيُحِلّوا مَا حَرّمَ الله، إنّ الزّمانَ قد استدار كهيئته يَوْمَ خلق الله السَّمواتِ والأرض، وإنّ عِدَّةَ الشّهُورِ عِنْدَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كتابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السّمواتِ وَالأَرْض، مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثلاثة متواليات وواحدٌ فرد: ذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرم، ورَجب الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هَلْ بلَّغْت؟..[4].

---

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) التذكرة الحمدونية.

(٣) سيرة ابن هشام، وقريب منه ما ورد في كتاب الأوائل.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ: ٥٨٩ـ٥٨٨.

وأد البنات

ومن أبشع العادات التي كانت عندهم وأد البنات، ولا أدري من أين كانت لديهم كل تلك القسوة حتى كانوا يقدمون على هذا الفعل، ولا أظنّ أن أباً يستطيع أن يفكّر في فعل كهذا لمجرد أنه يعيش الفقر، على أن القرآن وصف حالهم تلك في آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً ﴾[2]، قال ابن حمدون في التذكرة الحمدونية: وكانوا يقتلونهن كما ذكر تعالى خشية إملاقٍ، وقد ذكر أنهم كانوا يقتلونهنّ خوف العار وأن يسبين وليس يمتنع وقوع السبين، وقد جاءت أخبارهم دالةً عليها. وكان قيس بن عاصمٍ المنقري يئد بناته، وكان من وجوه قومه له من المال ما شاء[3].

وإذا أردت أن تنظر إلى مبلغ قسوتهم في هذا الأمر فانظر الى ما رواه أصحاب المصنّفات منهم الصفدي في الوافي بالوفيات، حيث قال في ترجمة قيس بن عاصم: قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد الحارث المنقري التميمي أبو علي، وقيل: أبو طليحة، وقيل: أبو قبيصة، والأول أشهر، قدم في وفد تميم على رسول اللهﷺ سنة تسع.. أقبل على رسول اللهﷺ فقال: كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنية قط إلا وأدتها، إلا بنيّة كانت لي ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخوالها فكانت فيهم. فقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً. ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها،

---

(١) النحل: ٥٨ـ٥٩.

(٢) الإسراء: ٣١.

(٣) التذكرة الحمدونية ٧: ٣٣٠.

وجعلت في قرونها شيئاً من الخلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية فقد أعجبني جمالها وكيسها، فبكت ثم قالت: هذه ابنتك، كنت خبرتك أني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى اشتغلت أمها ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة وجعلتها فيها وهي تقول: يا أبه، ما تصنع بي؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهي تقول: يا أبه أمغطي أنت بالتراب، أتاركي وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها، فدمعت عين النبيﷺ ثم قال: إن هذه لقسوة وإن من لا يَرحم لا يُرحم[1].

شعائر العبادة (الحج)

بغض النظر عن قرابين الأصنام وما كانوا يتوجهون به إليها، نذكر أهم ما بقي من شعائر دين إبراهيم عليه السلام وهو الحج، إذ لم يبق من الدين على ما يبدو غير هذه الشعيرة، لأن التزاماتهم اندثرت فصاروا يأكلون الميتة والدم ويشربون الخمر ويستحلون ما حرّم الله، فلا معلم للدين في ذلك الوقت غير هذه العبادة على ما شابها من تشويه بإضافة أو حذف.

قال ابن الكلبي في كتابه الأصنام: وفيهم على ذلك(الشرك وعبادة الأصنام) بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت نزار تقول إذا ما أهلت: لبيك اللهم! لبيك!

لبيك! لا شريك لك! إلا شريك هو لك!

(١) الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي ٢٤: ٢١٥؛ وكذا التذكرة الحمدونية ٢: ٢٠٥.

تملكه وما ملك!

ويوحّدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتم ويجعلون ملكها بيده...

وكانت تلبية عك، إذا خرجوا حجاجاً، قدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم. فيقولان: نحن غرابا عك!

فتقول عك من بعدهما: عك إليك عانيه، عبادك اليمانيه، كيما نحج الثانية!

وكانت ربيعة إذا حجّت فقضت المناسك ووقفت في المواقف، نفرت في النفر الأول ولم تقم الى آخر التشريق[1].

قال ابن الكلبي عن حجّ الأوس والخزرج:.. فكانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه (مناة) فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده. لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك... وهذا الصنم هدمه علي عليه السلام في عام الفتح[2].

قال ابن إسحاق: وقد كانت قريش ـ لا أدري أقبل الفيل أم بعده ـ ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه وأداروه فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفّت العرب بحرمتكم... فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر، والحج، ودين إبراهيم عليه السلام؛ ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها،... ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم[3].

وعليه صار الناس أيام الجاهلية ثلاثة أقسام:

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام: ١ـ٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٢ ـ ١٣.

(٣) سيرة ابن هشام: ١٥٦ حديث الحمس.

فمنهم الحمس، و قبائل الحمس من العرب قريش كلها، وخزاعة؛ لنزولها مكة، ومجاورتها قريشاً. وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب[1]. والقسم الآخر الطلس، وقبائل الطلس وهم سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك وعجيب وإياد بن نزار؛ وما سواهم من العرب فهم قبائل الحلة كتميم بن مرّ كلها غير يربوع، ومازن، وضبة...[2]. وقد ذكر ابن حبيب البغدادي في المحبّر أحوالهم في الحج بحسب أصنافهم بشيء من التفصيل فقال[3]:

كانت الحمس قد شدّدوا على أنفسهم في دينهم؛ فكانوا إذا نسكوا لم يسلوا سمناً ولم يطبخوا أقطاً، ولم يدخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولم يحركوا سعراً ولا ظفراً، ولا يبتنون في حجهم شعراً ولا وبراً ولا صوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسّون دهناً، ولا يلبسون إلا جديداً، ولا يطوفون بالبيت إلا في حذائهم وثيابهم، ولا يمسون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته، ولا يدخلون البيوت من أبوابها، ولا يخرجون إلى عرفات. يقولون: نحن أهل الله، ويلزمون مزدلفة حتى يقضوا نسكهم، ويطوفون بالصفا والمروة إذا انصرفوا من مزدلفة، ويسكنون في ظعنهم قباب الأدم الحمر.

وكانت الحلة يحرمون الصيد في النسك، ولا يحرمون في غير الحرم، ويتواصلون في النسك، ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه، فيسلا فقراؤهم السمن، ويجتَزّون من الأصواف والأوبار والشعار ما يكتفون له، ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها، ولا يلبسون في نسكهم الجدد، ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت ولا يؤويهم ظل ماداموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم، وأخصب ما يكونون أيام نسكهم؛ فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم، تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا

(١) كتاب المحبر لمحمد بن حبيب البغدادي: ١٧٨، وعدّ قبائل الحمس.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٩، وعدّ فيه القبائل من الحلة والطلس.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٩ ـ ١٨١.

حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء، يباشرونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراة. وكان لكل رجل من الحلة حرمي من الحمس يأخذ ثيابه، فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وإنما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت، لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلّوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم، إلا اللحم. وكان رسول الله ﷺ حرمي عياض بن حمار المجاشعي، كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله ﷺ.

وكانت الطلس بين الحلة والحمس، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس؛ وكانوا لا يَتَعَرّون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً، ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يئدون بناتهم، وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون.. انتهى ما نقلناه عن المحبّر.

وقد انتهى هذا التصنيف وما كان من شعائر بعد مجيء الإسلام، حيث أرسى النبي ﷺ قواعد يشترك فيها كل الناس، حيث لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ولكن لم يكن هذا بالأمر اليسير، بعد مضي أجيال وأجيال على تلك الأحوال؛ فقد كانت معاناة النبي ﷺ أكبر من أن توصف في سبيل التغيير، حتى قال ﷺ: «ما أوذي أحد مثل ما أوذيت في الله»[1].

هذا منتهى الكلام باختصار عن حال الجاهلية، عبادات وعادات ومعتقدات، وقد ختمنا بشعيرة الحج، لأنها بقيّة دين إبراهيم عليه السلام، والبقية الباقية منه، والحمد لله رب العالمين...

(١) كنز العمال ٣: ١٣٠، ح ٥٨١٨.